دعوة إلى اليأس!

بيت في البراري . . الطريق إليه محفوف بالمآسي . . مالك البيت وساكنه اليأس الأسيل الخد العزيز النفس . . اضطهده الزمن اللئيم وفطم عنه النعيم . عيث به بخته الذميم . ورماه في الحضيض . . النكسر قلبه النبيل ولم تتكسر عزة نفسه . . وإباؤه وشمم رفض أن يمد يده إلى الأمل متسولا فتات الشفقة . . وبطولة صمد لكرابيج الأيام وتباريح الآلام . . فشابت الأيام التي لا تشيب من صمود اليأس الأسيل الخد العزيز النفس .

قرر تولستوي أن يوزع ثروته على الفقراء . . فاندلعت نيران الحرب العائلية في القبيلة التولستوية بين رئيسها وعياله وأم عياله . . واندلع بين القفر . دمر مذهبه ونسفت مبادئه . . وانتصر عليه عياله وأمهم . وكالذئاب هشروا خيمه وأحلامه وآماله . . انقضوا على أرضه وأملاكه ورؤوسها فيما بينهم . . وتركوه على الخديدة . جديدة اليأس . . كما ذكرت في الأسبوع الماضي .

أزهار من جمر ونار

أصيبت الأشجار بنوبة يأس وانتحرت . . فأظلمت الدنيا في وجه تولستوي وملك الهول قلبه . . ثم يعد له مأوى يأوي إليه مع يأسه . . ويستظل بظله . . عافت الأشجار . ووارى الغراب خلاقا . . وها هو ذا يأسه يبكي ويتحسب على مصيبته . . فرحمت رياح عفلته وولولت . . ونح الشر في عينيه وبرق . . واضطرمت نار الثأر في قلبه وأججت . . تطاير شررها وتناثر فوق يديه . . فجميع أزهار النار في باقة ورودها زهرة زهرة . وجمرة جمرة في إناء الانتقام . . أتعمل بتذري فيها بستان فكره فيفوح أريه ويتشر حول سريرا . ويحيطها بهالات من لهب وجمر . . فتكوى بالنار التي يكوي هويا . ويحرق نعيمها كما تحرق نعيمه .

ويسعر غيظه أحمد يلف ويدور حول نفسه بسرعة خمسين ألف لفة في الدقيقة . . ومع كل لفة يتمنى لو خنقها لزواج منها . ومن زواجها وتعاليها . . مع يقينه بأنه لن يقتلها مهما فعلت به . تماما كما يتمنى الموت لزواج من عذابه . مع يقينه بأنه لن يموت مهما سقاه وقلاه العذاب . لأنه موت في العذاب وحياة العذاب . . وعند اللفة المئون بعد الألف . فزعل تولستوي فجأة . . وبدده صوت زلمة صارخة الترحة . وبأعلى صوته صرخ . وتبدايا ! . . فزعرت النار بذورها . وأطفئت صيحة النار .

إنه بعد عشرات سنوات تنازل إلى سونيا عن حقوقه كمؤلف عن كل الأعمال التي كتبها قبل عام ١٨٨١ . عام . ولادته الثانية . ولكن هذا التنازل كان وديا لا رسميا . . ثم برضاء لإنقاذ الأسرة من الأزمة المالية التي تعرضت لها في سني الجفاف التي تصدم فيها محصول الأرض . . ولكنه الآن يندم على فعلته . . إن كل دوبل تركع سونيا من وراء ظهر كتبه وتقلله على عياله . غير صغيره ويزوجه . تشاقفه مع عياله . وإذا كانت سونيا أسسه قيض النار حين أنشأت دار نشرها لنشر مجموعة أعماله الكاملة فقد حان الوقت لحرق قيض النار ويحق دار نشرها . . فهو وقد الحديد لم يسجل رسميا تنازله لها عن حقوقه كمؤلف

ليليات

وقرعت أجراس الانتقام . أعلن تولستوي زوجته بعزمه على خراب دارها بالتنازل عن حقوقه كمؤلف عن كل الأعمال التي كتبها إلى كل من يرغب في نشرها في روسيا وخارج روسيا . . فبعد اليوم لن يدخل بيته مليم واحد مقدره مع كتبه . . فهو لا يتاجر لا يقتنه ولا يفكره . ومؤلفاته ملك للجميع عدا زوجته وعياله !

انهارت تحداه سونيا خلف الخمران . . وكالريح العاصف ثار غضبها . وكالرعد القاصف انطلق لسانها ونحته أتيانها وطواحينها . . فقصمت قرار زوجها وخلصته . . فقطعته إربا إربا وألقت أشلاءه على الأرض وبقدميها داست عليها . قرفلها زوجها بعين من جليد وعين من صليع . . فهو رجل رابط الجأش ثابت الجنان . لا يستفزه رعد السحاب ولا يستخف طيش الشباب . . ثم يهدوء حك بظفره بقعة على باقة ليمونه الفلاسفي . . فجن جنون سونيا . . أهي هذه البقعة التي يريد أن يتخلص منها ؟ إن نجوم السماء أقرب إليه . . ستظل عالقة به وراضية له . . بقعة على باقته وغلا حول رقبته .

وواصل تولستوي حك البقعة بظفره . . فاحمرت . . فاسحب الغيوم من وراء سونيا واختفت . . ثم تفتح الباقة إنها الحقيقة .

انهمرت دموع من زئبق على خدودها . . حدق تولستوي في دموعها وذابت مقاومته . . رجعت صلابته إلى عظمون وجهه واستوطنت فيها مع مرارته . . نامت النجوم في عينيه . وسلطت غمة غمة . وبدمعة دمعة على وجنتيه وأحرقت قراره . . رك وادي الدموع تزوج دمع سونيا دمع تولستوي . . فطفقها الخلاف . . فحجمت السماء وكأنها . وطوية طوية وقفت على رجليا . ثم صفقت جناحيها وطارت . وعادت إلى مكانها . . ووافق تولستوي على أن تحفظ سونيا لنفسها في نشر مؤلفاته التي كتبها قبل عام ١٨٨١ . . ووافقت هي على أن يتنازل عن حقوق التأليف عن الأعمال التي كتبها بعد ذلك .

وبعد أسبوع وفي يوم ٢١ يوليه ١٨٩١ أنجع تولستوي زوجته أنه كتب رسالة إلى الصحف يوضح فيها أبعاد قراره . . فهاجت وماجت سونيا وانهارت في وجه زوجها . تاسية تناقيها الذي ثم من تحت القرش ومن وراء القلب . . ارتجع رياطها وعياطها . والبالت عليه بسياط لسانها . . إن عياله أولى تلاله من الأغراب . . إن هذا التنازل معناه نشر غسيله القذر على صفحات الجرائد وإعلان الجمهور رسميا بنزاعه مع زوجته وعياله وإهانه وإذلاله من يحملون اسمه ويعريضهم للذل والقال . وتمزيق رقابهم بالعار . . إن كان لابد من التنازل فليتم سرا لا جهرا . وليكتم حسناته كما يكتم سيئاته . . علما بأن هذا التنازل سيئة جديدة تضاف إلى سجل سيئاته . . لأنه في الواقع لا يؤمن في قرارة نفسه بضرورة التنازل عن حقوقه كمؤلف إلا بفعل ذلك بدافع الغرور . ليتمتع اسمه في سماء الخلد فتحنى له الدروس وليحله الأقلام . . إنه من أجل أن يجلب إليه أنظار الناس . ويرغمهم على أن يتوجوا هامته بأكاليل الغار . لا يتورع عن الخلق فهو محصول الكذب ومغلوش الفعل

ومن لم يكبح عنان لسانه . جميح إلى غاية أولها علاها وآخرها ندامة . وهذا ما حدث . صح تولستوي مزال سبه وشتمه ولعنه وهجوه . وفقد احترامه وجلاله . هزمت جيوش غضبه عساكر صبره . وفقد مدرعات أعصابه فاعتزله ثورة عالية وعين على وجه زوجته حقده وحقده وبغضه ومقته . وبكل جوارحه وأركانه قال لها إنها « أبشع مخلوقة في الوجود » لأنهم لها في دنياهاسوى جميع المثل لانطباقه على عيالها . وإفساد أعمالهم به . . ثم بكل أصوات روحه وجسده صرخ في وجهها مشيرا بيده إلى الباب : « اغرقي عن وجهي ! . . مشت أفعالك وأعمالك . . فجرت منك ومن خلقك وخلقك ! . .

سقط الليل على رأس سونيا . تسلل من شعرها إلى مسام جلدها إلى أعماق قلبها . . فجرت بسرعة ريح الشمال إلى الخديقة وجلست تحت ظل شجرة التفاح . إن ليلها بلا نهاية . الكلمة تحاصرها وتحبسها بين الفم والقمة . . الظلمة نور عينيها وانكلت مصباح وجهها . البيض عيدها سود . والقريب منها بعيد . أقرب الناس إليها أبعدهم منها . أمر إنسان لديها في الوجود يطردها كأنها كابوس حياته . ياسم الله . كيف يقدر تحل الله أن يقول لها : فجرت منك ومن خلقك وخلقك ! وياسم الله . كيف يتجرأ ويقول لها : اغرقي عن وجهي ! . ستقتل نفسها . ثم ستقتل نفسها . إذا انجرفت فسوف تغرب عن وجهه إلى الأبد . . سوف تتركه إلى الأبد وحدة وحيدة ترتعش على حد الزمن وحيدة وحيرة . أبدا لن تنتهي حسرته عليها . أبدا لن ينتهي حزنه لفراقها . إنها على يقين من ذلك بل إنه من شدة حزنه عليها سوف يحسدها هو الحي على موتها ورواحها الأبدية . وهو على حق في ذلك . . فسوف تزاح إلى الأبد من ظلاله وشبرة قلبه .

إن ليلها صامت وصمته طويل وكئيب . . إن الضفادع لا تنقق لتفرح عيا في قلبها من خصص . والبومة لبخل عليها بنعيقها والقريان لتنظر موتها لتندب ولتعدد . وانجاء رفرف طائر وخفق قلب الشجرة . فتصورت سونيا أن الليل الحنون يرتجف من أجلها . ثم سرعان ما خاب أملها . فعيست في وجه القمر الذي يناطح الشمس ليحتل مكانها في السماء . . ثم أحرجت من جيبها الفكرة التي لا تفارقها . وكتبت : « الموت هو الحل الوحيد للنزاع القائم بيني وبين ليوفتسكا » . ثم استشفت خطر النجوم البارد وردفت شجرة التفاح .

انتهى زمن التفاح الذي كانت تقضمه قضمة قضمة . وزمن التين الجريحة التي كانت تداويها . حان وقت الموت . عفرت وجهها بالتراب . وحشت فمها بالرماد . . أراحت عينيها فوق أجفان الليل . وأرهفت قدميها بالمشي فوق الحجيل . فار عليها قسطانها . والتبس فيله تحت كعب حذائها . . فانطحنت على وجهها فوق العشب الأسود . . قرضت أذنها حشرجة العشب الذي يحتضر . فهفهت وجرت في اتجاه محطة « كوزلوفكا » . هذه المرة مشتعلة على قضبان السكك الحديدية وتقرم عجلات القطار جسدها

ثم غابت عن بعيد رجلا فا خيلة عظيمة يتدلى قيض الفلاحين ويلوح له بيده . . فار قلبها في فمها ورقص فوق لسانها . . إنه ليوفتسكا . . إنه يجيء . . إنه يجري في اتجاهها . . إنه متلهف إلى

رؤية حقيقية التى أدمى مأساة منها . . ثم سرعان ما جاب أمتها وخاض فيها فى قسوة ويتجلب بطل على العشب البيت . . إن الرجل ذا اللحية والقميص الفلاحى هو كوزمينسكى ، زوج أخته داريا . ومن شدة غيظها أجهشت فى البكاء ، وحكت له ما دار بينها وبين زوجها وإصرارها على الانتحار ، فكلمها بصورت الحق فاستمعت إليه بقلبها . . وعادت معه كيلا يتم عياله ، وبالتالى فاينشكا آخر العنقود . ثم فى الطريق إلى البيت ، هربت منه وجرت إلى بير ، الفورونكا ، الذى يخرق صيحتها بأمل أن تستجمع فيه ، فيظن زوج أختها أنها تنوى إغراق نفسها فيطلب يوليس الحدة . فيأتى ليوفونشكا ويحملها بين ذراعيه ويعود بها إلى البيت . ونزلت فى البير ثم خرجت منه على الفور . فالماء بارد فى بيوتة الموت . فعادت إلى بيتها وهى أخر أيامها حيا .

صعدت إلى حجرة فاينشكا ، واتشلته بين سريره ، وضمته إلى صدرها ، وانهالت عليه بقبلاتها ثم أعادته إلى سريره خوفا من أن تموت بين يديها فجأة بحالها . وانتحت من بعيد ليوفونشكا يتحدث ويضحك مع صبيه ، ويع أولاده وبناته الكبار ، فالقى القلم من درج مكتبه وراب فى يده ، وجرى مرتعدا على الزوج ، وكبت : ليوفونشكا يبرده يضحك ويلهو مع عياله وصبيه ، وكأن شيئا لم يكن . إن يعرف أبدا أنى كنت على وشك الانتحار بسببه ، وإذا أخبره زوج أختى بذلك فلن يصدقه .

حنين الخنان الأخرس

وقبل منتصف الليل بقليل ، وبعد أن تفرق الضيوف ، وذهب كل منهم إلى حجرته ، توجه تولستوى إلى حجرته . تحمت سونيا خطواته من بعيد وبدت يدها إلى كتاب كان فى انتظارها فوق المنضدة التى إلى جوار سريرها . فتحه ولم تقرأ . ترقبت وعادت . واحدا ، اثنين ثلاثة أربعة خمسة ستة سبعة الفتح . الباب ودخل ليوفونشكا . أعلقت بعينيها بأول حرف فى أول سطر . مأفا زوجها

– أتقرئين ؟

لم ترد عليه . تأملت على الصفحة الكلمات التى لا تراها . فتقدم تولستوى بخطوات ذئب إلى مدينة النوم . خطف الكتاب من يد زوجه ، وألقاه على المنضدة . جلس على حافة السرير إلى جوارها . وحفت يده على يدها . فتحت النار أصابعها وأحرقتها . ولمع الخليد أصابعه وحمدها . فارتجع صوته الذاهل ، وسألها :

– ألا تزالين حانقة على ؟

– . . . . . .

– أقررت أن تخاصمنى إلى الأبد ؟

– . . . . . .

– مالما تغمضين عينيك ؟ . . . أرؤية وجهى توجعك إلى هذا الحد ؟

– . . . . . .

– تكلمى ! . . . المرأة الحرساء توحشنى ! . .

– . . . . . .

لانت سونيا فى بكها وسحبت يدها من تحت يد زوجها . أطفأت شمعة المصباح واندست تحت الغطاء ، وأراحت رأسها على الوسادة . فتزحزت شفقا تولستوى على جلوتها . فخفق قلبها كما يخفق قلب أبى الهول الحجرى . . ثم يأس تولستوى رسم بخطوه دائرة حول عينيها ، وأحاط بقبلاته قلعة عبوسها . . اندهشت عيناها تحت جفنيها وارتشفت قطرة قطرة عسل شفتيه . . أحست بخدوده فى جلوتها ، ولكنها لم تفتحها ثم أدارت ظهرها لزوجها وباتت على الجنب الذى يريحها . . فارتفع أنين السرير ، وتناد الحجرة للصمت الخريج .

انسحب تولستوى من مدينة النوم ، تاركا أمله فى رعاية أعيدة السرير . خلع ثيابه وسرواله ، وارتدى جلبابه . ثم تسلل إلى السرير والتمس تحت الغطاء . انتظرت سونيا بصبر هزيمته الساحقة . رجف ليوفونشكا بخطاه فى أحلامها . سمعت سكتة الصمت . ثم يأس بها ووواصل رحلته ، وأراح خده على كتفها . وكبت له كتفها فهى تعرف من أين تؤكل الكتف . أحس تولستوى بخذيه وإن لم يتكلم . استنشقت سونيا عطر بدنه الصامت ، وتنهدت امتنانا له على إقراره الصامت بذنبه . صور له وعد أنها سامحته . . . فعرفت أنامله على كتفها لحن الحنان . ثم لحن سونيا على أنغامه . فتحت أنامله من العزف . فاستيقظا بخفقة وبها تحت السماء على كتفها . فتسولت السماء نباية عنه عفوها . فتجلجلت سونيا منها ، ووضعت حد زوجها بنجمة فا ثم وارت الليلة البيضاء . فحالت شفا زوجها فوق أجنحة الحرة وحملها فى مطار أدبها . فمس ما أرق وأعذب كلمات الحب والحنان . فتفتحت أزهار الربيع فى سمائها ، وتكللت بقلة البنفسج تحت جلدها . وتدحرجت من فيها النجوم والأزهار والقبلات . . وبركاتها غطت وجه زوجها . فلمع الحب وسطع . وشمتع ضوؤه ، وبر الحب الخلد وأعاد بذوره .

ودارت محركات الانسجام .

ولبثت محركة فى السماء بين الليل والنهار . . اليوم فيها الليل . فجمع خلاخله وهرب مع ثلاثاته . وبزغ الفجر ولم يرحب به أحد . فسريا تائة . وزوجها أيضا ، وأشرقت الشمس ، فاستيقظ تولستوى ، وأيقظ سونيا بقبلاته المئتية .

ودارت من جديد محركات الانسجام .

وقوعت أجراس الانتقام

وفى الأيام التالية ، استمرت المفاوضات والمأمورات والقصد ثم الوصال والفراق بالكلمات ثم المراسلات . . وبعد كل عناق يشاهدهم البدر أبو الهلال . أو شمس الفجر أم الشروق . يبتسم هو وهى على الحوار الذى دار بين جسديهما فى غياب الحب عنهما وبث كل منهما بقدمه وشجنه إلى بوبالة .

وتجرى قلم سونيا فوق الورق ، وتكتب بطل : «٢٧ يوليه ١٨٩١ : إلى شديدة الحنق على نفسى . أيقظنى ليوفونشكا فى الفجر بقبلاته المئتية . حدثت مجهدة فى أول الأمر ثم أشفقت عليه من يأس جسده . واستسلمت . ثم تناولت قصة فرنسية «قلب امرأة» لبول بورجيه وقرأت وأنا فى البير حتى الساعة الحادية عشرة والنصف . هذا ما لم أفعله قط فى حياتى . إن هذه النشوة التى أستسلم لها لا تنتظر لى فى سنى . بعد شهر سيكون عمرى تسعا وأربعين سنة لا سبع عشرة سنة . إن زوجى لطفا رجل عجيب ! . . فى نفس اليوم الذى تشاجرنا فيه شجارا رهيب السماء ، راح يبث لى حبه وهيامه ولهيبه لى ، مؤكدا لى مدى ولعه وتعلقه بى . . بل قال لى : «إننا أسعد زوجين فى العالم رغم خلافاتنا ومشاحناتنا» . وقال أيضا : «حبا لا مثيل له فى الوجود لأن نارة أبدا لا تخبو» . ولكن هذا الحب الذى يتكلم عنه حب جسدى بحت . وهذا هو سر قتل خيانة الزوجية . أنا أيضا موافقة به . وإن كنت فى قرارة نفسى أبغض هذا الثوب من الحب . . إنى حاولت أسلم بحب عذرى وصداقة روحية .

وقلم تولستوى هو الآخر راح يجرى فوق الورق ويكتب بيأس . «٧٠ أغسطس ١٨٩١ : أعيانى بالحراس وفى الخطيئة . عندما للشهوة بوقيقا للرغبة . بارت ساعدتى بارب احتمل إلى الصراط المستقيم : . . إلى أتعذب . . وعذابى لا يطاق .

ويقال الحب فى حب الزوجين . أعطى فى ولائه ووفائه لها . وحافظ على عهده لها . ولم يضجر يوما من صفيها كبرس الزوجة المروجة بالخلاوة . فالحب يتذكر لا مزلت . وأعماله من أعمالى الرجال . وحفظ العهد من شرائط الزوجية أيا الخصوصة لأنها ولدت أنثى فى الأمة فهى مزلة . والفاوت من شدة السماء فى الظهر والجوهر . فى الأرباء وفى الأعمال .

ولذلك نبرت الخصومة من ودها ومودتها لتولستوى وزوجته وتعديت أحوالها وتبدلت أمورها . فصار ودها جفاء ومودتها لتولستوى عداوة . وغدرت بها وهجرتها . فانهى نزاع سونيا وتولستوى بالخلاوة برضى إلى حد ما الطرفين . . واتفق تولستوى على أن يترك لسونيا حقوقها فى نشر أعماله السابقة لولادته الثانية ووافقت هى على أن يتنازل عن حقوقه كمؤلف عن باقى أعماله ، لمن يشاء نشرها دون أن يتقاضى منه ريالا واحدا .

وفى يوم ١٦ سبتمبر ١٨٩٦ ، أرسل تولستوى إلى الجرائد الكبرى فى روسيا رسالة جاء فيها : « أتنازل عن حقوق كمؤلف إلى كل من يرغب فى نشر مؤلفاتى فى روسيا أو فى الدول الأجنبية . باللغة الروسية أو فى ترجمة لها . علما بأن هذا التنازل يسرى فقط على الأعمال التى كتبتها بعد عام ١٨٨١ والتى نشرت فى الجزء الثانى عشر والثالث عشر من مجموعة « أعمالى الكاملة » . كما أن هذا التنازل يسرى أيضا على المؤلفات التى سوف أكتبها فى المستقبل . . .

وكان تولستوى يود أن تنشر رسالته فى الجرائد وإلى جوار توقيعه . توقع سونيا كى يدهش الجمهور ، أن هذا الإجراء غير مرتبط عندها . ولكن سونيا رفضت أن تلبى له رجاءه . وهى معذورة . فهذا التنازل ما زال فى نظرها حماية لأسرتها من وعيالها صحابها . وعلى الخلق أن يتحمل وحده وزر ذنبه ومسئولية جنايته . هذا علاوة على أنها لا توقع بإمضائها على أقوال رجل يطلق ثم يرجع . . إنه أعدى ما يوم عيد ميلادها فى ٢٢ أغسطس ١٨٨٦ ، رواية « موت إيفان إيليتش » لتنشرها فى الجزء الثانى عشر من « أعمالها الكاملة » التى تصدرها دار نشرها .

ثم صحب فيا الرواية أيضا للمطبعة .

ونشرت الجرائد الروسية نص رسالة تنازل تولستوى . فرأتها سونيا ونبح قلبها . فتركها تولستوى تنبح ، وراح هو يعبر نهر الفجر . ولكن هذه حكاية أخرى يطول شرحها □

للأذكياء فقط

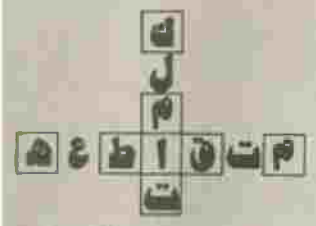

هذه مسابقة من نوع جديد.. لا تطلب جهدا كبيرا لكى تحل.. ولا تستغرق وقتا طويلا.. ولكنها تحتاج إلى ذكاء.. وتستحق أن تحاول.. وأول الخبر بالطريقة العادية.. قل وقت الحل الصحيح.. أخبرنى وأيضا عددا قليلا من الجمل أسفل أن الحل لا يحتمل أكثر من حلها

لغز الأيدى السوداء

آباء أسرة عائلة فى هولندا لكون أيديهم ذات لون أسود وملمس خشن مثل طفولهم ؟!

كوبون مسابقة أورينت

(٢٥)

الاسم : .....

العنوان : .....

المهنة : .....

يرفق هذا الكوبون مع الحل السابق وترسل إلى مجلة أكتوبر ١١١٩ أكتوبر شارع التيل - القاهرة ويترتب عام الظرف مسابقة أورينت رقم الكوبون المسلسل

آخر موعد لتلقى الرد على الكوبون رقم (٢٥) يوم ٣٠ / ١١ / ١٩٨٠

أورينت

مع تحيات
عبد الرحمن الحريرى
مدير عام مكتب الحريرى